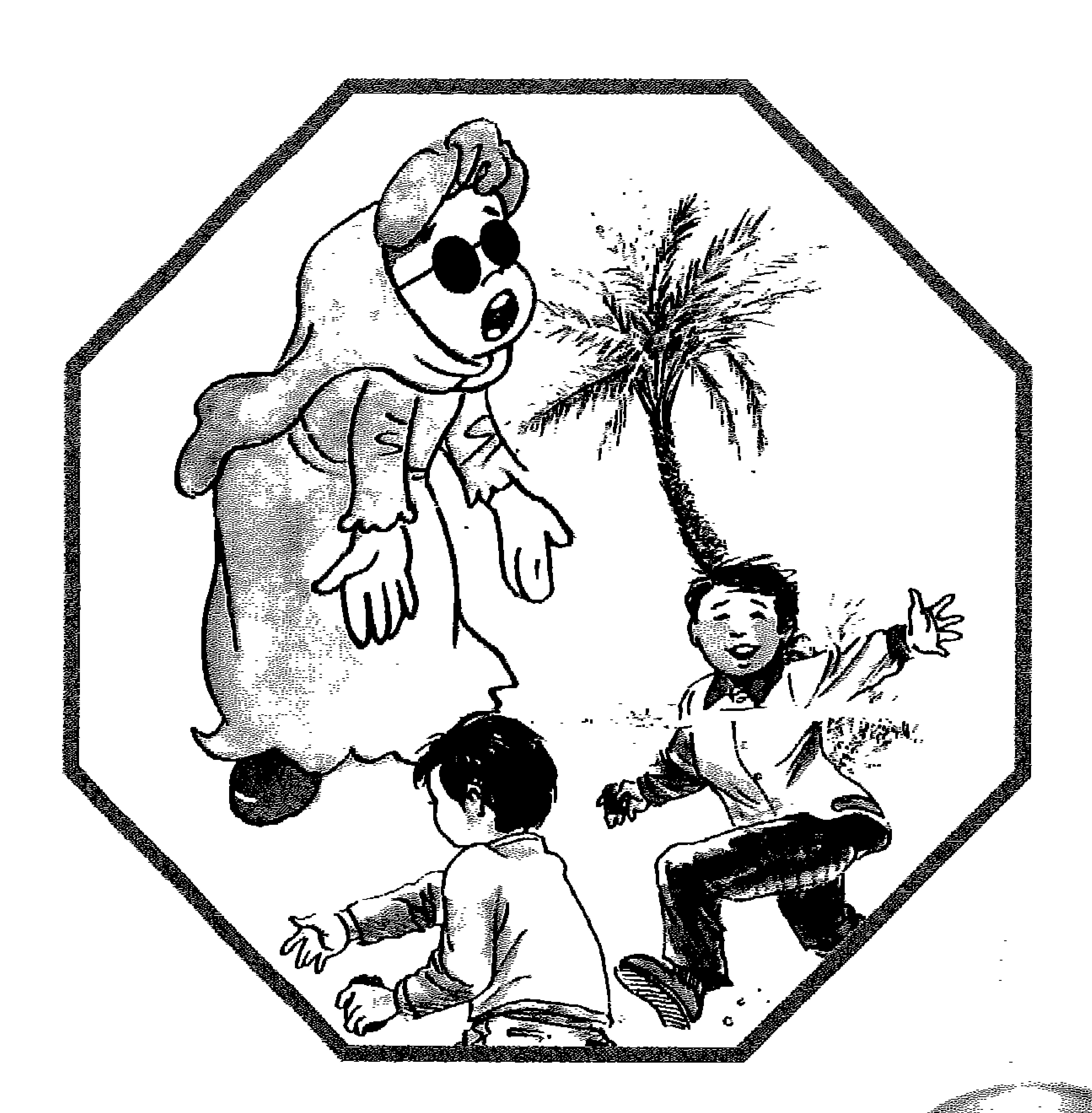
كتاب الشباب

وائل الطائش العاقل



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

وائل الطائش العاقل

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

وائل الطائش العاقل – الرياض

٥٨ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٥-١١-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية – السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٣٠

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٣٠ ردمك: ٥-١١-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض – العليا – طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



«وائل وائل وائل

يا ولدْ يا سافل! » يا ولد يا سافل! »

كان يرددُها عشراتُ الأطفالِ العميانِ وهم يطاردونَ الفتى وائلاً بين أشجارِ حديقةِ ابن سينا، كانوا جميعاً في حوالي السابعةِ أو الثامنةِ. وكانَ هو في الرابعةَ عشرةَ، يرتدي بذلةً رياضةً يذهبُ بها للّعبِ في الحديقةِ مع رفاقهِ في المدرسةِ.

كانتْ عيونُ الأطفالِ المكفوفينَ بيضاءَ تماماً أو حمراءَ جاحظةً، وهم يركضونَ خلفَهُ، وأيديهم الصغيرةُ ممدودةٌ نحوَهُ، وكأنَّهم يبصرونَ بها، وكلما تَراجعَ أمامَ طائفةٍ منهم وجدَ خلفَهُ أخرى أكثرَ منها عدداً وأشدَّ شراسةً قادمةً من الاتجاهِ المعاكسِ، حتى أحاطوا بهِ منْ كلِّ جانبٍ.

وحينَ حاصروهُ ارتمى بعضُهم على ساقيهِ، واعتلى بعضُهم ظهرَهُ وطوَّقَ عُنقَه بذراعين قويَّتينِ حتى كادَ يخنقُه، وتكاثروا عليه فسقطَ إلى الخلفِ كالشجرةِ أثقلَها القرودُ أو أصابتْها صاعقةٌ.

وزحفوا فوقَهُ كالضفادعِ، وصرخَ مستغيثاً بأمِّه، ووقفَ

ينفضهمْ عنه كالجرادِ، فوجدَ نفسَهُ في غرفةِ نومِهِ واقفاً وسطَ ظلامٍ حالكٍ، وأمُّه تُهَدِّئُ روعَه بقولها: «اللهُ معك، يا ولدي اللهُ معك!»

كانتْ أمُّه قد استيقظتْ على صوتِ ولدِها وهو يصرُخُ صُراخاً يقطِّعُ القلبَ! خرجتْ من نومٍ ثقيلٍ فارغةَ الذاكرةِ، لا تعرفُ منْ هي، ولا أينَ هيَ! أحسَّتْ برعبٍ شديدٍ، وكأنَّها صحتْ داخلَ قبرِها بعدَ موتِها، الظلامُ كثيفٌ تكادُ اليدُ تلمسُهُ.

أنقذَها صراخُ ابنِها مرةً أخرى مِنْ ضياعِها في الفراغِ الكبيرِ والصمتِ الرصاصيِّ الثقيلِ، امتدتْ يدُها إلى مفتاحِ النورِ، وخرجتْ منْ فراشِها تنتفضُ وقصدتْ غرفةَ وائل.

أشعلتْ النورَ فوجدتْهُ واقفاً مادّاً ذراعيهِ، وكأنهُ أعمى يتحسسُ ما حولَهُ، بادرتْ إلى عناقِهِ فزِعةً: «اللهُ معَكَ، يا ولدي، ماذا أصابك؟»

عانقَها وتمسَّكَ بها وكأنها طوقُ نجاةٍ مُدَّ لغريق، وانفجرَ باكياً، وأخذتْ هي تطيِّبُ خاطرَه وتربِّتُ ظهرَه: «انتهى

الكابوسُ يا ولدي. لا بدَّ أنكَ حلمتَ شيئاً مفزعاً، لا خوفَ عليكَ الآن.»

وأحستْ بأعصابه المتوترةِ ترتخي بين ذراعيْها، وبصوتِه يتحولُ إلى نحيبِ الناجي بَدَلَ صراخِ المستغيثِ، وقادتْه إلى سريرِه قائلةً:

– سآتيكَ بكأسِ حليبٍ ساخنٍ يهدِّئُ أعصابَك ويساعدُكَ على النومِ. إنها الثالثةُ بعدَ منتصفِ الليلِ.

ففاجأها بقولِه:

– أشعلي النورَ قبلَ أن تذهبي.

– إنهُ مشعولٌ!

– ولكنني لا أرى شيئاً!

– يستحيلُ! النورُ يملأُ الغرفةَ باهراً كضوءِ النهارِ!

– ولكني لا أرى شيئاً، يا أمي، لا أرى إلا الظلامَ!

وعادتْ إليه ذاهلةً:

– سلامةُ عينيكَ، يا ولدي! لا بدَّ أنه إظلامٌ مؤقتٌ سببُه الفزعُ. استرحِ الآنَ، وسآتيكَ بالحليبِ.

وكـانَ أبوه الحـاجُّ مـصطفى الزبدي قـد اسـتـيـقظَ، فـجـاءَ وجلسَ إلى جَـانبـهِ يسـألُهُ عـمَّـا به، أَمـسكَ بوجـهـهِ بين يديهِ وأدارَه نحوَهُ، ونظرَ في عينيهِ سائلاً:

- ألا تراني؟

- لا...

فوضعَ الأبُ يدَه على عينيْ الفتى وأسبلَ جفنيهِ بإبهاميه، وأخذَ يتمتمُ بآيةِ الكرسي وبعضِ الدعواتِ.

وعادتْ أمُّهُ وجلستْ إلى يسارِه ومدَّتْ إليهِ كأسَ الحليبِ قائلةً: «خذْ» وكأنَّها ترفضُ تصديقَ أنَّهُ لا يرى! ومدَّ الولدُ يديْهِ بحركةِ أعمى يبحثُ عنْ شيءٍ لا يراهُ. فانهمرتْ دموعُ المرأة، وارتعشَتْ يدُهَا حتى كادتْ تدلقُ الكأسَ، فأخذَهُ زوجُها منها ووضعَهُ في يدِ وائلٍ قائلاً بثقةٍ وثباتٍ:

- اشربْ يا ولدِي، وعدْ إلى النومِ. وسترى أنَّ هذا الإظلامَ المؤقتَ سيزولُ مع زوالِ الصدمةِ، وسيعودُ إليكَ بصرُكَ كما كانَ.

طَمْأَنَ الحاجُّ مصطفى ولدَهُ، وعادَ إلى غرفةِ نومِهِ غيرَ

مُطْمَئِنٌ بالمرةِ. وبقيتْ الحاجةُ خديجةُ إلى جانبِ ابنِها تواسيهِ وتربِّتُ ظهرَهُ لينامَ.

* * *

وفي الصباحِ لم تتحققِ المعجزةُ التي بشَّرَهُ بها والدُهُ. فنادى الحاجُّ مصطفى أشهرَ أطباءِ العيونِ في المدينةِ، وأخبرَهُ باستعجالِ الحالةِ. فطلبَ الطبيبُ إحضارَ الولدِ في الحالِ.

فحصَهُ الطبيبُ طويلاً بمحضرِ والديهِ، كانَ يريدُ أنْ يخرجَ بنتيجةٍ مُطَمْئِنَةٍ لهما، ولكنَّه في النهايةِ أفصحَ عنْ عجزِهِ، وقالَ وهوَ يحركُ رأسَهُ في حيرةٍ:

– عينا الولدِ سليمتانِ للغايةِ، ولا شيءَ من وجهةِ النظرِ الطبيةِ يمنعُهُ من الرؤيةِ، هذا الولدُ يجبُ أن يبصرَ!

فقالَ الوالدُ:

– ولكنه لا يبصرُ.

فقادَهُما الطبيبُ إلى غرفةِ مكتبهِ حيثُ قالَ لهما:

– هناكَ أسبابٌ أخرى غيرُ ماديَّةٍ ولا جسمانيةٍ لكفٍّ البصرِ، أسبابٌ نفسانيةٌ محضةٌ، وهي ليستْ من اختصاصِ

أطباءِ العيونِ، ويعالجُها الأطباءُ النفسانيون، وعندي عنوانُ طبيبٍ نفسانيٍّ مجربٍ يدعى الدكتورَ نبيهاً، أنصحُكما بأخذِ الولدِ إليهِ.

وكتبَ لهما عنوانَهُ ورقمَ هاتفِهِ، فاستأذنَه الحاجُّ مصطفى في أن يكلمَهُ منْ هاتفِ العيادةِ اختصاراً للوقتِ، وارتبكَ أبووائلٍ حينَ أخبرتْهُ الكاتبةُ بأنَّ الدكتورَ تقاعدَ، وأنَّ طبيباً شاباً حلَّ محلَّهُ بالعيادة.

ورأى طبيبُ العينين الخيبةَ في وجهِ الحاجِّ مصطفى، فاستفسرَهُ وحين أخبرَهُ بتقاعدِ الدكتورِ نبيهٍ بحثَ في دليلِهِ عن رقمِ بيتِهِ وناداهُ. ومن لهجةِ حديثِهما أدركَ الحاجُّ مصطفى أنهما صديقانِ قديمانِ، ولم يضعِ الطبيبُ السماعةَ حتى أقنعَ صديقَهُ بقبولِ هذهِ الحالةِ لأهميتِها بالنسبةِ لأحدِ بحوثِهِ.

ووضعَ السماعةَ وقالَ للحاجِّ مصطفى:

– أردتُكَ أنْ تذهبَ بوائلٍ إلى الدكتورِ نبيهٍ لأنَّهُ اختصاصيٌّ في الأمراضِ النفسيةِ المؤثرةِ على وظائفِ الجسدِ. وهو صديقٌ عزيزٌ لا يردُّ لي طلباً..وسيكون وائلٌ مريضَهُ

الوحيدَ، وسيعنى به عنايةً خاصةً.

واكتشفَ الحاجُّ مصطفى أنَّ الدكتورَ نبيهاً يعيشُ متفرغاً لبحوثِهِ وتآليفِهِ في مزرعةٍ خارجَ المدينةِ. وطلبَ منه إحضارَ الولدِ بعدَ ظهرِ نفسِ اليومِ، وأنْ يُحْضِرَ معَهُ ملابسَهُ وكلَّ ما يحتاجُه من أدواتٍ لإقامةٍ قدْ تطولُ.

* * *

وعلى بابِ المزرعةِ استقبلَهما الدكتورُ نبيهٌ صحبةَ كلابِهِ الدلماسيةِ الأربعةِ البيضاءِ المبقعةِ بالسوادِ، كانتْ الكلابُ منضبطةً فلمْ تنبحْ، واكتفَتْ بشمٍّ الزائرينَ دونَ تحريكِ ذيولِها كعادتِها عندَ الترحيبِ، وتبادلَ الثلاثةُ التحياتِ.

ووضعَ الدكتورُ نبيهٌ يدَهُ على رأسِ وائلٍ أثناءَ مصافحَتِهِ، ونظرَ إلى عينيهِ نظرةً فاحصةً، ثم قدَّم الإثنين للكلابِ الأربعةِ بأسمائِها. وأمسكَ بيدِ وائلٍ وعرضَها على أنوفِها لتشمَّها على سبيلِ التعارفِ، لِتَقْبلَهُ كعضوٍ جديدٍ في العائلةِ.

وأمام المنزلِ الريفيِّ الصغيرِ الجميلِ استقبلتْهما السيدةُ صفيَّةُ، زوجةُ الدكتورِ نبيهٍ، وطلبتْ من الحارسِ أخذَ الكلابِ.

وفي الشرفةِ المطلَّةِ على مجرى نهرِ «أبي رقراق العميق» والتلالِ الخضراءِ التي يخترقُها، جلسَ الثلاثةُ ينتظرونَ الشايَ الذي ذهبتْ السيدةُ صفيةُ لإعداده، وأخذَ الدكتورُ نبيهٌ يتحدثُ عنْ طريقةِ اقتنائهِ للمنزلِ ليذيبَ الجليدَ بينَهُ وبين زائريهِ.

ولم يتمالكِ الحاجُّ مصطفى منَ التعبيرِ عنِ انبهارِهِ بالمشهدِ الطبيعيِّ الأخاذِ، ولكنَّهُ توقَّفَ متذكراً أنَّ ابنَهُ محرومٌ من نعمةِ الاستمتاعِ بجمالِ المنظرِ. فقالَ وائلٌ مجنباً والدَه الحرج:

– أنا أعرفُ هذا المكانَ جيداً، أتيتُ إليهِ مراراً في رحلاتِنا المدرسيةِ.

وأخذَ يصفُه لهم من الذاكرةِ بدقةٍ تثيرُ الإعجاب.

وغيَّرَ الدكتورُ نبيهٌ الموضوعَ بسؤالِه وائلاً عمّا فعلَهُ في اليومِ السابقِ لفقدانِه الرؤيةِ، فتسمَّرَ وائلٌ في مقعدِه وتوترتْ أعصابُه، وحملقَ في الفراغِ محاولاً أن يتذكرَ شيئاً. كانتْ ذاكرتُه صفحةً بيضاءَ خاليةً صامتةً، وكأنما سألَهُ الدكتورُ نبيهٌ

عـمّـا يتـذكـرُه قـبلَ يومِ مـولدِه. واغـرورقتْ عـيناهُ بالدمـوع، وترقرقتْ منها على خديهِ قطراتٌ كبيرةٌ صافيةٌ ساخنةٌ. فربّتَ الدكتورُ نبيهٌ الذي كانَ يجلسُ بينهُ وبينَ أبيهِ يده مهوناً عليه:

ـ لا تقلقْ! الذاكرةُ تلعبُ علينا مقالبَ أحياناً كما يلعبُها الحاسوبُ حينَ يبتلعُ أيقونَةً لم نحسنْ خزنَها. ولكنها لا بدَّ أن تظهرَ من حيثُ لا نتوقّعُها. إضافةً إلى أن عقلَ الإنسانِ الباطنيَّ يبقى منشغلاً بالبحثِ عن الأيقونةِ الضائعةِ حتى حينَ يكفُّ العقلُ الواعي عن البحثِ ويسلّمُ بالهزيمةِ!

ودخلتِ السيدةُ صفيةُ بصينيّةِ الشاي، وجلستْ تصبُّهُ في الفناجينِ وكانتْ قد سمعتْ ما قالَهُ زوجُها فعلّقتْ:

ـ هذا صحيحٌ، وهو يحدثُ لي مراراً هذهِ الأيام، خصوصاً مع المواعدِ وأسماءِ الذينَ أعرفُهم حينَ أُقابلُهم فجأةً، ولكنَّ عقليَ الباطنيَّ لا يُسْعِفُني إلا بعدَ فواتِ الأوانِ وابتعادِ الشخصِ أو ضياعِ الموعدِ.

وضحكتْ فضحكَ معها الثلاثةُ.

وبعدَ الشايِ أمسكَتْ السيدةُ صفيةُ بيدِ وائلٍ وقادَتْه إلى

غرفةِ الضيوفِ حيثُ سيقيمُ. وخرجَ الدكتورُ نبيهٌ معَ الحاجِّ مصطفى يودعُه ويطمئنُه.

* * *

وساعدَتِ السيدةُ صفيةُ الولدَ على ترتيبِ ملابسِه في خزانةِ الغرفةِ، ودلَّته على الفراشِ والحمامِ والثلاجةِ الصغيرةِ، ووضعتْ يدَه على مفتاحِ النورِ، ثم تراجعَتْ مرتبكةً وضاحكةً منْ نفسِها، وقد تذكرت أن الولد كفيف لا يحتاج إلى نور!

– يا لي من مغفلةٍ!

ثم أضافتْ:

– ولكنَّها فلتةٌ فرويديةٌ إيجابيةٌ، كما يقولُ الدكتورُ نبيهٌ. وأنا أقولُ إنَّها فألٌ حسنٌ!

* * *

ساعدَ الدكتورُ نبيهٌ وائلاً على الاستلقاءِ فوقَ أريكةٍ مريحةٍ ناعمةٍ في غرفةِ التحليلِ النفسيِّ، وجلسَ على كرسيٍّ بجانبِه وفي حِجْرِه دفترٌ وقلمٌ، وأخذَ يلقي عليه أسئلةً عاديةً جداً، مثلَ سؤالِه عن أسماءِ أفرادِ عائلتِه وأصدقائِه واسمِ

مدرستِهِ وأساتذتِهِ وهواياتِهِ والكتبِ والأفلامِ السينمائيةِ التي أعجبَ بها، ووائلٌ يجيبُ بطلاقةٍ ودونَ ترددٍ.

وسألَهُ كيفَ يقضي أيامَهُ العاديةَ وكيفَ يقضي عطلَهُ المدرسيَّةَ، فقال إنه غالباً ما يقضي مساءَ الجمعةِ مع أصدقائه في حديقةِ ابن سينا يلعبونَ كرةَ القدمِ، وحين سأله:

– هل لعبتُمْ بالأمسِ كالعادةِ؟

اضطربَ وائلٌ وأجابَ بسؤالٍ:

– ماذا كانَ يومُ أمسِ؟

– الجمعةُ.

فطرفَ الفتى جَفْنَيْهِ، وحملقَ جاهداً في السقفِ وكأنَّهُ يجتهدُ ليبصرَ وقال:

– لا أذكرُ.

– هل تذكرُ شيئاً مما فعلتَهُ بالأمسِ؟

– لا، لا شيءَ!

– لا شيءَ بالمرَّةِ!؟

– لا شيءَ بالمرَّةِ!

– يا نهار أبيض!

وضحكَ الدكتورُ للاستعارةِ الرديئة، وعادَ يسألُ:

– إذا لم تلعبوا الكرةَ، فماذا تفعلونَ؟

– نذهبُ إلى مقهى الإنترنتِ في أكدال.

فأظهرَ الدكتورُ نبيهٌ اهتماماً خاصاً، وسأل مندهشاً:

– صحيح!؟ وماذا تفعلونَ في الإنترنتِ؟

– نُبْحِرُ على أمواجِها بحثاً عن المغامرةِ والمفاجآتِ، ونتحدثُ مع الهواةِ مثلِنا في بلادٍ أخرى...

– وبأيَّةِ لغةٍ؟

– بالإنجليزيَّةِ. وهي اللغةُ الغالبةُ. وهناكَ مُبْحِرونَ بالفرنسيَّةِ من أوروبا وكندا.

– عماذا تتحدثون؟

– عنْ كلٍّ شيءٍ. نحنُ نسألُ وهم يجيبونَ أو العكس. وقد لاحظنا أن أغلبَ الفرنسيين عنصريون.

– حقاً! لماذا!

– لا أدري! ولكنَّهم حالما يعرفونَ أننا مغاربةٌ أو عربٌ

يقفلونَ باب الاتصالِ ويختفونَ!

– دونَ أن يقولوا شيئاً؟

– بالمرةِ! ولكني سمعتُ أنهم يفعلونَ ذلك مع كلٍّ من لا يُتْقِنُ الفرنسيةَ، ويتضايقونَ من الأخطاءِ اللغويةِ والنحويةِ التي يرتكبُها الأجانبُ.

– وماذا عن الناطقين بالإنجليزيَّة؟

– إنهم أكثرُ صبراً واحتمالاً، بل وترحيباً بالأجنبيِّ، وإذا اعتذرَنا لهم عن أخطائنا اعتذروا هم لنا بدورهِمْ عن جهلهِمْ بلغتنا، وشكرونا على الجُهْدِ الذي نبذلُهُ للتحدثِ بلغتِهم.

فقالَ الدكتورُ نبيه:

– لذلكَ انتشرتْ لغةُ هؤلاءِ وتقلَّصتْ اللغةُ الفرنسيَّةُ، الفرنسيون يبالغونَ في طلبِ الكمالِ، والناطقونَ بالإنجليزيَّةِ يكتفونَ بالفهمِ، والأحسنُ عدوُّ الحسن، كَمَا يُقال.

وأعجبَ وائلٌ بالحكمةِ الأخيرةِ، وطلبَ إعادتَها ليكتبَها، ناسياً وضعَهُ الحزينَ، فوعدَهُ الدكتورُ بأن يكتبَها له في انتظارِ عودةِ بصرهِ. وغيَّر الموضوعَ بالرجوع إلى الحديثِ عن الإنترنت.

ونادتْهما السيدةُ صفيةُ للعشاءِ، فأنهى الدكتورُ نبيهٌ الجلسةَ، وقادَ مريضَهُ إلى المطعمِ.

* * *

وفي بيتِ وائلٍ جلسَ أبوهُ الحاجُّ مصطفى وزوجتُه الحاجةُ خديجةُ وطفلتُهما ناديةُ حولَ مائدةِ العشاءِ صامتين في حزنٍ، وقطعتْ ناديةُ الصغيرةُ الصَّمتَ الثقيلَ بسؤالِها:

– ألنْ يذهبَ وائلٌ إلى المدرسةِ غداً؟

فتوقفَ أبوها عن مضغِ لقمةٍ كان يلوكُها بدونِ شهيةٍ، وقال:

– سأنادي مديرَ المدرسةِ وأخبرُه بأنه سيتغيبُ بضعةَ أيامٍ، ولا أريدُ أحداً غيرَنا أن يعرفَ شيئاً عن مرضِه. لا أريدُ أن تمتلئَ الدارُ علينا بالمعزين والفضوليِّين والمتشفِّين. لا أريدُ أن نصبحَ حطباً لنارِ الإشاعات!

ووجَّهَ السؤالَ إلى نادية:

– فهمتِ؟ أنتِ بالذات لا أريدكِ أن تخبري أحداً بما حدثَ لوائل، حتى ولو كانَ من أقرب أصدقائك أو صديقاتكِ!

فاستفسرتْ ناديةُ غيرَ مصدقةٍ:

- حتى صاحبتي نزهة؟

- حتى صاحبتَك نزهة!

- حتى ولو استحلفتَها ألا تبوحَ بالسرِّ؟

فقال أبوها بجد:

- أنا لا أخشى صديقاتِك، ولكني أخشى صديقاتِ صديقاتِك!

وأضافتْ أمُّها:

- إذا ضقتِ أنتِ بكتمانِ سرِّكِ، فسيكونُ غيرُك أضيقَ به!

ونرجو ألا ينكشفَ أمرُ وائلٍ حتى يعودَ إلينا صحيحَ العينينِ معافى، بحول الله.

* * *

وفي الجلسةِ الثانيةِ التي خصصها الدكتورُ نبيهٌ لتحديدِ معالمِ شخصيةِ وائلٍ اكتشفَ أنه فتى حيُّ الضميرِ، مرهفُ الإحساسِ، سريعُ التأثرِ. ورجَّحَ أن يكونَ عماهُ ناتجاً عن صدمةٍ نفسيَّةٍ جرحتْ إحساسَه الرقيقَ.

ومـرتْ ثلاثةُ أيامٍ، وفي كلِّ يومٍ كـانَ يجلسُ إليـهِ مـرتين، ويصـحَبُه معـه لمزاولةِ بعضِ الأعـمـالِ اليـدويَّةِ الزراعـيَّـةِ، مـثل ترتيبِ الفـواكـهِ في الصناديقِ، أو سـقيِ بعضِ المغـروسـاتِ بخرطومٍ رشاشٍ من بعيد.

وكان والدُ وائلٍ يتصلُ بالدكتورِ نبيهٍ كلَّ مساءٍ ليسألَ عن أحوالهِ فيُطَمْئِنُه الدكتورُ، ويطلبُ منه التحلي بالصبر.

* * *

وفي اليـوم الرابعِ طلبَ الدكـتـورُ من الحـاجِّ مـصطفى مـسـاعـدتَه بتـقـصِّي بعض الوقـائعِ، فـأظهـر الحـاجُّ مـصطفى استعداداً وحماساً لذلك:

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– أن تتـصلَ بأصدقاءِ وائلٍ ورفاقـه الأقربينَ، وتعـرفَ منهـم أينَ كانَ يومُ الجمعةِ، وماذا فعلَ بالتفصيل.

فـصـمتَ الحـاجُّ مـصطفى حـتى ظنَّ الدكـتـورُ أنَّ المكالمةَ انقطعتْ، فنادى:

– هل تسمعُني؟

– نعمْ، نعمْ، أسمعُك.

– هل فهمتَ اقتراحي؟

– أجل، ولكنني كنتُ أرجو أن يبقى خبرُ وائلٍ بيننا، واتصالي برفاقِه وسؤالُهم عن شيءٍ كهذا قد يثيرُ شكوكَهم. فقد يتساءلون لماذا لا أسألُه هو؟ وقد جاء بعضهم فعلاً للسؤالِ عنه في البيتِ حينَ لم يروْه في المدرسة.

ففكرَ الدكتورُ قليلاً ثم قال:

– أليسَ لهُ صديقٌ قريبٌ من العائلةِ نُدْخِلُه معنا، ونُشْرِكُه في السرِّ ليقومَ بهذهِ المهمَّةِ؟ فسؤالُه لنْ يثيرَ أيَّ شكٍّ.

فقالَ الحاجُّ مصطفى، متذكراً ومرتاحاً للخروج من الورطةِ:

– أعتقدُ أنني وجدتُه. إنه ابنُ عمِّه مراد. وهو شابٌّ رزينٌ وذكيٌّ وجديرٌ بالثقةِ.

وودَّعَ الحاجُّ مصطفى الدكتورَ نبيهاً، وأقفلَ الخطَّ بأُصبعه، وأدارَ رقمَ بيتِ أخيه، وطلبَ من مرادٍ الحضورَ إليه باستعجال.

* * *

صُدمَ مرادٌ بالخبرِ، وأنصتَ بجدٍّ وحزنٍ إلى اقتراحِ عمِّه. وخفَّفَ عنه الصدمةَ إشراكُه في عمليةِ علاجِ وائلٍ، ابنِ عمِّه وصديقِه.

وفي ملعبِ كرةِ القدمِ بمدرسةِ وائلٍ سألَ مرادٌ جماعةً من رفقائِه عنهُ بطريقةٍ عفويَّةٍ:

- أينَ وائلٌ؟

فأجابَ أحدُهم وهو يلاعبُ الكرةَ:

- لم نره منذُ ثلاثةِ أيامٍ. وكنا نريدُ أن نسألكَ عنه.

- أنا لم أره منذُ أربعةِ أيامٍ. متى كانتْ آخرُ مرةٍ رآه فيها أحدُكم؟

فأجاب نفس الفتى:

- أعتقد أنني رأيتُه يومَ الخميس.

ثم غيَّرَ الموضوعَ بالدخولِ في اللعبِ.

وبعدَ المباراةِ دخلَ الفريقُ غرفةَ تغييرِ الملابسِ، وبقيَ مرادٌ يسألُ رفيقاً لوائلٍ من الفريقِ الآخرِ، وحينَ لم يجدْ عندَهُ خبراً التحقَ بفريقِه، وبمجردِ دخولِه عليهمْ سكتوا سكوتاً مريباً، ثمَّ

فطنوا بسرعةٍ لسكتتهم المفاجئةِ وعادوا للحديثِ، وكأنَّهم كانوا يتحدثونَ عن المباراةِ، وأظهرَ هو الغفلةَ، ودخل معهم في الحديث.

وخرجَ الفريقُ من المدرسةِ مع أذان المغربِ، وودَّعهمْ مرادٌ، وتفرقوا كلٌّ واحدٍ في اتجاهٍ، وتبعَ مرادٌ من بعيدٍ أصغرَ أعضاءِ الفريقِ سناً، وكانَ يدعى راغباً دونَ أن ينتبهَ هذا إليه.

* * *

وما دخلَ راغبٌ العسريُّ بيتَه حتى رَنَّ جرسُ البابِ، فصاحت الخادم:

- مَنْ؟

- أنا مرادٌ، هل راغبٌ هنا؟

فتحَ راغبٌ البابَ وخرجَ ونظرَ حواليْه قبلَ أن يمدَّ يدَهُ لمصافحةِ زائرِه، وحين لم يرَ أحداً دعاهُ للدخولِ.

وفي غرفتهِ المستقلةِ عن الدارِ لاحظَ مرادٌ ارتباكَه، فتجاهلَهُ قائلاً:

- جئتكَ في موضوعٍ دقيقٍ يهمُّكَ ويهمُّ جميعَ أصدقاءِ

وائل. وأريدك أن تُقسم لي على المحافظةِ على السرِّ.

فبانَ الجدُّ على وجهِ راغبٍ، ودعا مراداً للجلوسِ. قال مراد:

– صديقُنا وائلٌ مريضٌ، مصابٌ بمرضٍ غريبٍ مجهولٍ، ويوجدُ الآن في مصحةٍ، وأهلُه لا يريدونَ أن يعرفَ أحدٌ ذلك.

فسقطَ فكُّ راغبٍ للمفاجأةِ ولم يدرِ ما يقولُ. قال مراد:

– استيقظَ وائلٌ صباحَ ليلةِ الجمعةِ السبتِ مكفوفَ البصرِ، لا يرى إلا الظلامَ. ووجهُ الغرابةِ في مرضهِ أنه غيرُ ماديٍّ، أي ليسَ جسدياً، بل هو نفسيٌّ! الطبيبُ الاختصاصيُّ أكدَ أن عينيْهِ سليمتانِ، وهو الآن عند طبيبٍ نفسانيٍّ. وقدْ زادتْ حالتُه سوءاً وتعقيداً أنه فقدَ الذاكرةَ تماماً، والطبيبُ النفسانيُّ في حاجةٍ إلى معرفةِ الأحداثِ التي أدَّتْ إلى عماهُ.

فقال راغبٌ متعاطفاً مع صديقه وائل:

– وماذا يمكنني أنا أن أفعل؟

– لقد رأيتَ بنفسِكَ أنني حينَ حاولتُ أن أسألَ رفاقَه في

ملعبِ المدرسةِ أقفلوا البابَ في وجهي بطريقةٍ مريبةٍ، أكَّدَتْ لي أنَّهم يتستَّرونَ على شيء. وهنا يأتي دوركَ لإسداءِ خدمةٍ عظيمةٍ إلى صديقكَ وائل الذي يحبُّكَ ويعدُّكَ أخاه الصغيرَ...

– كيف؟

– إذا استطعتَ أن تقولَ لي شيئاً عن تحركاتِه يومَ الجمعةِ الفارط وما قبلَهُ فستُساهم في إنقاذِ بصرِ صديقِكَ وصديقِنا جميعاً، ماذا تقولُ؟

ووقفَ راغبٌ يذرعُ الغرفةَ في قلقٍ وحيرةٍ، فقال مرادٌ:

– هل هناكَ ما يمنعُكَ من الكلامِ في هذا الموضوعِ؟

فعضَّ راغبٌ على شفتِه السفلى وكأنَّه يصارعُ نفسَه أو يعاني من أزمةِ ضميرٍ. فقال مرادٌ مشجعاً:

– إن ما ستفعلُه من أجلِ مرادٍ كلُّه خير، ولا داعيَ للتردد!

وظلَّ يراودُه ويبيِّنُ له خطورةَ سكوتِه على حياةِ صديقِه حتى غلبَ على الفتى جانبُ المنطقِ، فاستسلمَ وجلسَ على حافةِ سريرِه، وقال:

- ما يمنعُني من الكلامِ هو أنني أقسمتُ مع بقيةِ الإخوانِ أن نكتمَ سرَّ يومِ الجمعةِ، ولكنَّ القسَم كانَ قبلَ معرفتي بما حدثَ لوائلٍ بعدَ افتراقنا، فقدْ أقسمَ معَنا هو كذلك.

فقالَ مرادٌ فاتحاً ذراعيه ترحيباً باقتناعٍ راغبٍ:

- إذنْ لا حرجَ عليكَ الآن، ولا على جميعِ الذين أقسموا، فماذا حدثَ إذن؟

- ذهبنا إلى حديقةِ ابن سينا، بعد الصلاةِ والغَدَاءِ، لنلعبَ الكرةَ في أحدِ ملاعبِها، فوجدنا الملاعِبَ كلَّها مأخوذةً من فرقٍ جاءتْ قبلنا، ولما كانتِ الحديقةُ شبهَ فارغةٍ في ذلك الوقتِ، اخترنا طريقاً واسعةً، وأخذنا نلعبُ فيها في انتظارِ فراغِ أحدِ الملاعبِ. وبينما نحنُ نلعبُ، جاءَنا حارسٌ عجوزٌ مُلْتَحٍ، ذو مظهرٍ غريبٍ مضحكٍ، كان يرتدي بذلةَ الحراسةِ، وعلى رأسِه عمامةٌ يضعُ فوقها قبعتَهُ الرسميةَ. طلبَ منا عدمَ اللعبِ وسطَ الطريقِ العامِّ. فجادلناهُ نحن بأنَّهُ طريقٌ خالٍ. فأصرَّ على ألا يتركَنا نلعبُ، فأخذنا نستعطفُه ونتعهدُ له بالتوقفِ عن اللعبِ حالما يلوحُ أيُّ عابرٍ منْ روَّادِ الحديقةِ، فقالَ:

«يا أولاد، أنتم لا ترونَ أنفسَكم وأنتمْ منهمكونَ في اللعبِ! إنكم تكونون غائبين عن الوجودِ، كلٌّ اهتمامِكم منصبٌّ على الكرةِ وعلى كوارعٍ بعضكمُ البعض! وقد اشتكى عددٌ من الزوارِ إلينا وإلى السيدِ الوالي من لاعبي الكرةِ، فأصدرَ أمراً بمنعِها، وأنا لستُ إلا منفذاً، فلا تلوموني.»

قال راغب:

– فتظاهرنَا بالاستجابةِ لأمرِه، وجلسنا بين الأشجارِ نراقبُه وهو يبتعدُ، وننكّتُ على منظرِ القبّعةِ فوقَ العمامةِ. وحين اختفى قمنا لاستئنافِ لعبِنا، وحَمَتِ المباراةُ لدرجةٍ لم نعدْ نشعرُ معها بما حولَنا، وكأنّنا تحتَ تأثيرِ مخدرٍ شديدِ المفعولِ!

وتنهدَ راغبٌ بعمقٍ وقال:

– ولم يُخرجْنا من غمرةِ اللعبِ العنيفِ إلا صراخُ طفلةٍ في حوالي السابعةِ، دخلتْ بيننا، فأصابتْها الكرةُ في وجهِها إصابةً قويةً كسرتْ نظارتِها فوق عينيْها! فسقطتْ على ظهرِها فاقدةَ الوعي، والدمُ يفورُ من عينيْها ويكسو سائرَ وجهِها.

وخفَّ إليها أهلُها فأُصبْنا نحنُ بفزعٍ شديدٍ، ولُذنا بالفرارِ، ولم نتوقفْ إلا في ملعبِ المدرسةِ، وقد اصفرتْ وجوهُنا وارتعدتْ فرائصُنا... وهناكَ اتفقنا على كتمانِ السرِّ وعدمِ العودةِ إلى الحديقةِ حتى تُنسى هذه الحادثةُ الأليمةُ.

وأغمضَ مرادٌ عينيْه، وزمَّ شفتيْه ألماً وحزناً على الطفلةِ الصغيرةِ... وبعدَ لحظةِ صمتٍ سأل:

– طبعاً كانَ وائلٌ صاحبَ القذفةِ المشؤومة!

– لا أدري بالتأكيدِ، ما أعرفُه هو أنه كانَ أشدنا فزعاً وانزعاجاً. فهوَ ذو حسٍّ مُرْهفٍ. ولكننا اتفقنا أن نتضامنَ مع الفاعلِ أياً كان، وأن نصرِّحَ، في حالة انكشافِ أمرنا، بأننا اشتركنا جميعاً في القذفةِ، أو أن ينسبَها كلٌّ واحدٍ منا لنفسِه، وأن نأخذَ العقابَ جماعةً!

– وماذا ستفعلونَ الآن؟ هل ستنتظرونَ حتى يقبضوا عليكمْ، فتصبح التهمةُ تهمتينِ، ضربُ الطفلةِ والهروب من القانونِ؟ معَ كلٍّ ما سيصْحَبُ ذلك من وصفِكمْ بالجُبناءِ والمجرمين...

ـ الجماعةُ في حيرةٍ كاملةٍ! وهي منقسمةٌ على نفسِها، فريقٌ يقولُ بالتزامِ الصمتِ والانتظارِ، مُعَلِّلاً موقفَه بأنَّ ما حدثَ حدثَ، والكشفُ عن فاعليه لن يعيدَ إلى الطفلةِ بصَرها. وسيكونُ سبباً في تنكيدِ عشرِ أسرٍ بريئةٍ. وقدْ يكونُ سبباً في فصلِنا جميعاً من المدرسةِ والقضاءِ على مستقبلِنا، وفريقٌ أقلُّ منه عدداً يرى أن نسلِّمَ أنفسنا إلى العدالةِ، ونعترفَ بخطئنا الذي لم يكنْ مقصوداً على أيةِ حالٍ، ونطلبَ العفوَ منْ أهلِ الضحيَّةِ، ونعطيَ المثلَ لغيرِنا من الأولادِ في النبلِ والأخلاقِ الصحيحة.

وتوقفَ راغبٌ ليسألَ مراداً:

ـ لو كنتَ أنتَ مكاني مع أيِّ فريق كنتَ تقفُ؟

ـ مع الفريقِ الثاني، دونَ تردُّدٍ! فالاعترافُ بالذنبِ فضيلةٌ، وسيكونُ لموقفِكمُ النبيلِ هذا أثرٌ طيبٌ على القاضي والرأيِ العامِّ، وسيكونُ من ظروفِ تخفيفِ الحكمِ عليكمْ، خصوصاً وأنكم بدونِ سوابقَ، وأن خطأكمْ هذا لمْ يكنْ مقصوداً، وأنكمْ دونَ سنِّ الرشدِ.

فقال راغبٌ:

- هذا هو رأيي أنا كـذلكَ، ولكني لم أستطعْ إقناعَ الآخرينَ به. فهلْ تتطوعُ بالذهابِ معي إليهمْ ومساعدتي على إقناعهمْ؟

فكَّرَ مرادٌ لحظةً، وقال غيرَ موافقٍ:

- لن يكونَ تدخُّلي في مصلحتِك، فأنتَ ملتزمٌ معهم بحفظِ السرِّ. وكشفُه لي، دون سابقِ اتفاقٍ معهم، قد يعُدُّونه خيانةً منكَ وخروجاً عن الجماعةِ. وقد يزيدُ من تعقيدِ الأمورِ. أنا أعتقدُ أنَّهُ من الأفضلِ أن تعودَ إليهمْ، وتخبرَهم بما حدثَ لوائلٍ، وتحاولَ إقناعَهم في ضوئِهِ، فجهلُهم بذلكَ هو سببُ تخوُّفِهم من اتخاذِ موقفٍ شجاعٍ.

وانصرفَ مرادٌ قائلاً:

- أخبرني بالنتيجةِ.

* * *

قصدَ مرادٌ دارَ عمِّهِ الحاجِّ مصطفى الزبديِّ، وانفردَ به في غرفةِ الجلوسِ حيثُ كانَ يشاهدُ نشرةَ أخبارِ المساءِ، وأطفأ

الحاجُّ مصطفى الجهازَ وتوجَّه إلى ابن أخيه بكلِّ جوارحِه.

وظهرَ الارتياحُ والاستبشارُ على وجهِ الرجلِ وهو ينصتُ لمرادٍ، وقال معقباً:

- أنا على يقينٍ من أنَّ هذا الحادثَ وراءَ ما أصابَ وائلاً، فهوَ ولدٌ شديدُ الحساسيةِ، ويكرهُ العنفَ.

ومدَّ يدَه إلى سماعةِ الهاتفِ قائلاً:

- هذا خبرٌ في غايةِ الأهميةِ بالنسبةِ للدكتورِ نبيهٍ، ولابدَّ من إخبارِه بهِ في الحالِ!

وفي انتظارِ صوتِ الدكتورِ أشارَ الحاجُّ مصطفى إلى مقالٍ كانَ يقرؤُه في جريدةٍ، وهمسَ:

- اقرأْ هذا.

وكان عبارةً عن استجوابٍ مع حارسِ الحديقةِ العجوزِ، تظهرُ فيهِ صورتُهُ المضحكةُ بالقبعةِ الرسميَّةِ فوقَ العمامةِ والوجهِ الملتحي. وأثناءَ حديثِ الحاجِّ مصطفى مع الطبيبِ قرأ مرادٌ الاستجوابَ وأعصابُهُ متوترةٌ، خشيةَ أن يكونَ الحارسُ تعرَّفَ أحداً من الفتيانِ باسمِهِ، فَيُفْسِدَ عليهم سبقَهم إلى الاعترافِ والاعتذارِ.

ولكنَّه تنفسَ الصعداءَ حينَ تأكدَ من أنَّ الحارسَ لم يذكرْ أحداً باسمِه. وكلُّ ما قاله هو أنه يستطيعُ أن يتعرَّفَ على بعضهم إذا رآهم، خصوصاً الذين سخروا من عمامتِه، وأطلقوا عليهِ لقبَ «الحاج فرانسوا».

وذكرتْ الجريدةُ أن أهلَ الطفلةِ حملوها بسرعةٍ إلى قسمِ المستعجلاتِ بمستشفى «ابن سينا» القريبِ من الحديقةِ.

وحينَ أنهى الحاجُّ مصطفى المكالمةَ كانَ أقلَّ تفاؤلاً مما كانَ قبلَها. واستفسَرهُ مرادٌ فقال:

– كان للخبرِ وقعٌ حسنٌ على الدكتور نبيهِ، ولكنهُ قال لي إن الطريقَ ما تزالُ طويلةً، فاكتشافُ العقدةِ لا يعني حلَّها.

فقالَ مرادٌ مصبِّراً عمَّه ومواسياً له:

– الرجاءُ في الله.

واستأذنَ في الانصرافِ وخرجَ

* * *

لم يستطعِ الحاجُّ مصطفى مقاومةَ إغراءِ زيارةِ الدكتورِ نبيهٍ في غيرِ موعدِها، فاستقبلَه هذا باشّاً ومقدراً قلقَ الوالدِ على

ولده. وأثناءَ الحديثِ شرَحَ الطبيبُ الموقفَ بقولِه:

- سيساهمُ تذكُّرُ وائلٍ للحادثِ في تحديدِ العقدةِ وتشخيصِ الداءِ. وبينَ تحديدِ العقدةِ وحلِّها مسافةٌ قد تقصرُ وقد تطول. ويعتمدُ العلاجُ على وائلٍ وعلى سرعةِ استجابته للعلاج.

- ولكنْ ما هيَ عقدتُه؟

- حسبَ المعطياتِ الجديدةِ، يبدو أنَّها حالةٌ من حالاتِ الإحساسِ المُفْرِطِ بالذنبِ ومعاقبةِ الذاتِ. إحساس وائل بأنَّه كانَ السببَ في فقدانِ الطفلةِ لبصرها جعلَه يعاقب نفسَه بفقدانِ نفسِ الحاسَّةِ التي فقدَتها الطفلة.

- هذا غريب جداً! ولكنَّه لم يفعل ذلكَ عامداً.

- ليسَ تماماً. فحسبَ ما قلتَ لي، كانَ الأولاد يلعبون الكرةَ وسطَ طريق عام وليسَ في ملعب مخصص لذلك، ثم إنَّ الحارسَ نهاهم عن اللعب هناكَ، وأخبرَهم بأنَّه ممنوع، ولم يكتف الأولاد بالاستهانةِ بقوله، بل سخروا منه!

وفتحَ الحاج مصطفى فمَه مندهشاً للملاحظاتِ التي لم

تخطر على بالهِ سواء عندَ سماعِ الخبرِ أم حينَ رواه الدكتور.

وعادَ من المزرعةِ أقلَّ حماساً منه حينَ ذهبَ.

* * *

دخلَ مراد قسمَ المستعجلات بمستشفى ابنِ سينا فانقبضَ قلبه لكثرةِ ما رأى من مصابينَ في حوادثِ السيرِ ومن جروحٍ وكسورٍ ودماء، واستغربَ لهدوءِ الأطباءِ والممرضاتِ والممرضينَ في وسطِ ذلك الجوِّ المأساويِّ العامرِ بالأنينِ والحزنِ. وأدهشَه أن يرى بعضَ الأطباءِ يتحدثونَ في مشاغلِهم اليوميةِ وهم يشتغلونَ على بعضِ المصابين، بل ويتضاحكونَ ويداعبونَ المرضى، وكأنَّهم حولَ مائدةِ شايٍ!

وسمعَ أحدَهم يلوم شاباً مراهقاً مكسورَ الساق على السرعةِ المفرطةِ بدراجتهِ الناريَّة، واختراقِه للضوءِ الأحمرِ، وتسببهِ في حادثِ سيارةٍ خطرٍ. سمعَه يقولُ له: "لو لم أكن طبيباً لكسرت ساقَك الأخرى، حتى تكُفَّ عن المجازفةِ وتعريض حياتِك وحياةِ الناسِ للخطرِ! حاولتَ بسرعتِك الجنونيةِ توفيرَ بضعِ ثوان، وسوفَ تضيع أسابيعَ كثيرةً طريحَ الفراشِ...

واستوقفَ مرادٌ ممرضاً، وسألَه عن ممرض يدعى عبدالسلامِ الموفَّق. وما كادَ ينطق اسمَه حتى ظهرَ الممرض، وجاءَ لاستقبالِه وتحيتِه وسؤالِه عن حاجتِه، فأخذَه مراد جانباً وقال:

ـ جئت لأسألكَ عن طفلة في حوالي السابعةِ، جاءَ بها أهلها إلى هنا ظهرَ يوم الجمعةِ الفارطِ.

ـ ما اسمها؟

ـ لا أدري.

ـ وإصابتها؟

ـ ضربَتها كرة قدم في وجهها، وقد تكون كسرت النظارة في عينيها.

ـ هل هيَ قريبة لكَ؟

ـ لا، ولكن لحادثِها علاقة بقريب.

فطلبَ منه أن يتبعَه إلى غرفةِ تسجيل الواردين، وهناكَ جلسَ الممرض إلى سجل كبير، وفتحَ على تاريخ يوم الجمعةِ، وأخذَ يتتبعُ بأصبعه أسماءَ المسجلين حسبَ إصاباتهم إلى أن توقفَ عندَ اسم الفتاةِ، فقال:

– اسمها نورة المصباحي. هذا كل ما أستطيع أن أقولَه لكَ عنها. فلم يكتب الطبيب أيَّ ملاحظة أمامَ اسمها.

– هل كتبَ عنوانها؟

– نعم.

وكتبَه له على ورقة، فأخذَها مراد وهمَّ بالذهابِ، فاستوقفَه الممرض سائلاً:

– ولكنكَ لم تخبرني بسببِ اهتمامِك المفاجئِ بهذهِ الطفلة.

– ليسَ الآن، سأزوركَ غداً في البيتِ وأشرح لكَ.

* * *

استيقظَ الدكتور نبيه كعادته في الساعةِ الرابعةِ قبلَ الفجرِ. وفي الحمَّامِ ترامى إلى سمعِه صوت نُوَاحٍ مُرٍّ يتخلَّله جدال بين شخصين، وأصغى إليه فإذا هو صادر من غرفةِ وائل، وظنَّ أنَّ الفتى نسيَ جهازَ التلفزيون مشعولاً.

ففتحَ عليه البابَ فإذا الجهازُ صامتٌ، وإذا الأصوات صادرة عن وائل، وهو يتقلب في فراشِه غارقاً في نوم مضطرب، والعرق يتصبب عليهِ.

وأشعلَ النورَ وجلسَ على حافةِ الفراشِ ينصت لما يقوله الفتى. كان وائل يجادل نفسَه بصوتين مختلفين، أحدهما صوته هو والثاني صوت طفلة صغيرة. كانت الطفلة تقول له بصوت حانق:

– أرأيتَ؟! أعميتَني فأعماكَ اللهُ!

– لم أفعل ذلكَ عمداً!

– كذاب!

– واللهِ العظيم!

– كذاب! بل فعلتَ ذلك عن قصد وسوء نية، أيها الأهوج الطائش!

– واللهِ واللهِ، وحياةِ أمي وأبي، ما فعلت ذلكَ عن قصد ولا سوء نية!

– لماذا إذن، بقيتَ تلعب الكرةَ في وسط الطريق، رغمَ تنبيه الحارسِ لك!؟

– لم يخطر ببالنا أن يمرَّ أحد وسطَ الطريقِ ولا نراه!

– كذَّاب! كذَّاب! كذَّاب! أنتَ تعرف أنَّ لاعبَ الكرةِ

ينسى كلَّ ما حولَه إلا الكرةَ!

- لقد حدثَ كلُّ شيء بسرعة مدهشة! سرعةٍ غابَ عنا فيها العقل والتمييز. كنا في حالة غيبوبة وذهول!

- كان ذلك قبلَ أن يُنَبِّهَكم الحارسُ العجوز، وكنتم واعين بما يكفي لِتسْخَروا منه، وتنتظروا ابتعادَه لتعودوا للعبِ وضربِ الأطفالِ!

فقال وائل في شبهِ هجوم مضاد، وقد أعيَته محاولات إقناعها:

- إنَّ لوالديكِ نصيباً من المسؤوليةِ والذنبِ كذلكِ!

فقالت الطفلة زاعقةً باستنكار:

- والديَّ أنا!؟

- نعم، والديكِ! فقد رأيَاكِ تدخلين بينَنا ونحن نلعب، فلم يمنعاكِ.

فسكتت قليلاً، وقد بهرهَا منطقه وأربكَها، ولكنَّها سرعان ما استعادت صفاءَ ذهنِها، وعادت إلى الهجومِ.

- لا تحاول قلبَ الحقائقِ وإلباسَ والديَّ مسؤوليةَ فعلتكَ

الحمقاء، لم يخطر ببال أبي ولا أمي أن يَتَّخِذَ أحدٌ الطريقَ ملعباً للكرة! نحن دائماً نذهب إلى تلك الحديقة، وهما يتركانني ألعب وحدي، دونَ خوف أو مراقبة.

فأخذَ وائل ينتَحِب بألم وحُرْقةٍ، ثم صاحَ يائساً من إقناعها:

– يا إلهي، ماذا أفعل حتى تصدقيني!؟

فجاءَه صوتها بارداً كالحديد:

– كيفَ أصدقك أنا، والله الذي خلقَكَ ويَعْلَمُ أسرارَكَ لم يُصدِّقْكَ؟

– ماذا تقولينَ!؟ ما هذا المسخ؟ كيفَ عرفت أنه لم يصدقني؟

– لأنه أعماكَ انتقاماً لي! ولو أنَّه صدقَكَ ما أعماكَ!

فبكى وائل بكاءَ اليائس، والألمُ يعصرُ قلبَه حتى أشفقَ عليه الدكتور نبيه وخافَ أن يصابَ بعاهة أخرى. همَّ بإيقاظه، فإذا بِالوَلَدِ يمد يديه في الفراغ مستعطفاً:

– سامحيني! سامحيني يا أختي الصغيرة العزيزة!

وأعاهِدُكِ أمامَ اللهِ أن أكونَ خادماً لك بقيةَ عمري، تفعلين بي ما تشائينَ.

فردت على استعطافه الباكي بقسوة:

ـ ماذا أفعل بخادم أعمى!؟ عصا بيضاء أنفع منكَ!

فتدخل الدكتور نبيه منفعلاً ومخاطباً الطفلة:

ـ كفَى أيتها الطفلة تعذيباً لهذا الفتى! يكفيه ما فيه!

ـ كلا! بل لا يكفي!

ـ بلى! بل إنها مصيبة أصابتكما معاً، وأنا على يقين من أنه لم يفعل بك ذلك عمداً، فكيفَ يُعقَل أن يضربَ شاب في مثل ذكاء وائل وطيبة قلبه فتاةً مثلك عمداً؟ وائل له أخت صغيرة في مثل سنك! وهوَ يحبها وهيَ تحبه، ويحب كلَّ البنات في سنها، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى هو الذي أرادَ لكما هذا، وكتبَه عليكما قبلَ أن تولدا. ولا بدَّ أنَّه فعلَ ذلك لحكمة ما لا نعرفها. ولا بدَّ أنَّه سيُعَوِّضُكُما عن نورِ البصر بما هوَ خير منه...

فعادت الطفلة إلى المشاغبة:

- بماذا سيعوضنا؟ لا شيءَ أفضل من البصر! به نرى العالمَ والناسَ، وبه نتفرَّج في التلفزيون والسينما، وبه نقرأ القصصَ ونرى الصورَ الجميلةَ. . . كلا، لا شيءَ يعْدِلُ البصرَا!

فقال الدكتور:

- بلى! هناكَ نورُ العقل الذي يميز به الإنسانُ بينَ الصواب والخطأ وهناكَ نور البصيرة الذي نميز به بينَ الحق والباطل والطيب والخبيث والحلال والحرام. ولا خيرَ في مُبْصِرٍ لا عقلَ له ولا قلبَ. فهوَ إلى الحيوان أقرب!

ويبدو أنَّ الطفلةَ الخفيةَ في داخل وائل راقَها ما سَمِعَت، فلم تجادل. ونظر الطبيب إلى وائل فوجدَه قد أغمضَ عينيه وراحَ في نوم عميق.

* * *

طرقَ الحاجُّ مصطفى بابَ بيت عبدالصادق المُريِّ، ووقفَ ينتظر هوَ وابنُ أخيه مراد. وجاءَهما صوت امرأة في هاتف الباب، فسألَ مراد عن صاحب البيت. وبعدَ لحظة انفتحَ البابُ وخرجَ رجلٌ في حوالي الأربعين، فحيَّاه الحاج مصطفى الزبدي

وعرَّفه بنفسه وبابن أخيه، وقالَ:

– لنا معكَ كلمة قصيرة، فهل تأذن لنا بالدخول؟

فرحَّبَ بهما الرجل، متسائلاً في سره كيفَ عرفا اسمَه وماذا عساهما يريدان منه.

وفي غرفة الجلوس قعدَ الثلاثة، وبادرَ المضيف بالسؤال:

– خير، إن شاء الله؟

فقال الحاج مصطفى:

– كل الخير... نحن ضيفاكَ، ولا نتوقعُ منكَ إلا كرَمَ الضيافة، فقد سألنا عنكَ وسمعنا ما طَمْأَنَنَا إلى حُسْن استقبالكَ لنا...

وخطرَ ببال عبدالصادق أنَّهما قد يكونان متسولين راقيين، فقالَ الحاج مصطفى لإزالة الالتِباس:

– جئنا نسألكَ عن حال طفلتكَ الصغيرة نورة، بعد حادث الكرة الذي تعرضت له في حديقة ابن سينا.

فاستغربَ عبد الصادق، وقال:

– إنَّها بخير، ولكن...

فقاطعه الحاج مصطفى:

- الحمد لله!

- ولكن كيفَ عرفتما؟ ولماذا تسألان؟

- حالة الطفلة تهمنا بطريقة مباشرة، وأرجو ألا يُغْضِبَكَ ما سأقوله لكَ. وإذا غضبت فلكَ كامل الحق.

وبدأ الرجل يفقد صبرَه، وسألَ بعصبية:

- أرجوكَ! أنا لا أعرف عمّاذا تتكلم!

- أنا آسف! ولكن الفتى الذي ضربَ نورةَ بالكرة هوَ ابني وائل.

وفوجئَ عبدالصادق، ولم يدرِ كيفَ يتصرف. فقالَ الحاج مصطفى:

- وقد جئتكَ لأعتذرَ لكَ عن فعلة ابني الشنعاء، وأطلب عفوكَ. فرغم أنه لم يَتَعَمَّدْ ضربَها فَلَعِبُه الكرةَ وسطَ الطريق العام خطأٌ لا يُغْتَفَر! ولم آتِ فقط لأعتذرَ لكَ وأطلب مسامحتكَ، بل جئت راجياً ومُلِحّاً في أن تقبلَ مني تعويضاً مالياً، أنتَ تحدده، على ما أصابَ الطفلةَ من ألم وفزع. أنا

مستعد لدفع جميع مصاريف الطبيب والدواء.

أطرقَ عبدالصادق المُرِّيُّ لحظة، ثم قالَ:

ـ لا أدري ما أقول! لقد عقدَت أَرْيَحيَّتُكَ لساني، وأنا أحمد الله تعالى على أنَّ الحادثَ لم يترك إلا جروحاً وكدماتٍ خفيفةً وسطحية، وأنَّ بصرَ نورة ورأسَها سليمان. وهذا أعظمُ تعويض يمكن أن يحصُلَ عليه أَبٌ في مثلِ هذه الظروف. وقد سامحت الفتى دُنْيَا وآخرة!

فقامَ الحاج مصطفى منفعلاً، دامعَ العينين، وقبَّلَ رأسَ الرجل شاكراً ومُقدِّراً نُبْلَه وكرمَه. وقالَ:

ـ رغمَ عفوكَ ولطفكَ فأنا عازم على التَّصَدُّقِ بالمبلغ من أجل نورة، ومن أجل ولدي وائل كذلكَ.

وتَهَدَّجَ صوتُه وانهَمَرَت دموعه. وأُحرِجَ عبدالصادق، ولم يستطع تفسير دموع الحاج مصطفى، فتطوَّع مراد بالشرح:

ـ وائل فقد البصر مباشرة بعد ضرب نورة بالكرة، وهوَ الآنَ في عيادة طبيب نفساني.

فقال عبدالصادق:

- يا إلهي، ولكن لماذا؟

- لا أَحدَ يدري، حتى طبيبُ العيون أكدَ أنَّ عينيه سليمتان، ولا يفهم لماذا لا يُبصِر، ومع ذلكَ فهوَ لا يبصر!

فقالَ الحاج مصطفى:

- قالَ لي طبيبه النفساني إنَّ ذلكَ قد يكون راجعاً إلى أزمة ضمير حادة. فقد بلغَه أنَّ الطفلةَ فقدَت بصرَها على إثر الضربة.

فقال عبدالصادق:

- ولكنَّها بخير، والحمد لله!

واستأذن وخرجَ لحظةً، ثم عادَ بنورة وعلى عينيها نظَّارة جديدةٌ، وهيَ تبتسمُ، فضمَّها الحاجُ مصطفى إلى صدرِه، وقلبُه يخفُقُ من الغِبطةِ والارتياحِ، بعدَ طولِ توتُّرٍ وقلقٍ. فقالَ عبدالصادق:

- إذا كنتَ تعتقدُ أنَّ إحضارَه للقائِها، أو حتى الذهابَ بها إليهِ في العيادةِ ليتأكَّدَ بنفسهِ من سلامةِ عينْيها سيساهمُ في التعجيلِ بشفائه، فأنا مستعدٌ للمساعدة!

* * *

وفي صباحِ اليوم الموالي، وكانَ يوم جمعةٍ، وقدْ مرَّ على إصابةِ وائلٍ أسبوعٌ كاملٌ، نبَحَتِ الكلابُ الأربعةُ، منْبِئَةً بوصولِ زوارٍ إلى ضيعةِ الدكتورِ نبيهٍ، وفتحَ الحارسُ البوابةَ فدخلتْ سيارةٌ ضخمةٌ من نوعِ «أربعة في أربعة»، وتوقفتْ على بابِ المنزلِ حيثُ كانَ الدكتورُ نبيهٌ في انتظارِها.

ونزلَ الحاجُّ مصطفى وقدَّمَ للدكتورِ زوجتَه الحاجّة خديجة والسيدً عبدَالصادقِ وزوجتَه والطفلةَ نورة وابنَ أخيه مراداً.

وفي قاعةِ الجلوسِ وسطَ الدارِ جلسَ الجميعُ، ودخلت عليهمُ السيدةُ صفيةُ لتحيتِهم والترحيبِ بهم، فسألْتها أم وائلٍ عن ولدِها، فأجابَ الدكتورُ نبيهٌ:

– إنهُ ما زالَ نائماً على غيرِ عادته. فقْد سهْرنا أمس إلى حوالي الساعةِ الثانيةِ بعدَ منتصفِ الليلِ. وسأوقظُه الآن، ولكنْ لن يدخلَ عليه إلا أنا والصغيرةُ نورةُ.

فأمسكَ أبو الطفلةِ بها وقال لها:

– ماذا ستقولينَ لوائل؟ هل تتذكرين؟

- نعمْ يا أبي، سأقولُ له إنني سامحتُه.

فقالَ الطبيبُ:

- عافاكِ يابنتي! تعالي.

وأمسكَ بيدِها الصغيرةِ ودخلَ الاثنانِ غرفةَ وائلٍ.

وكانَ هذا قد استيقظَ على نباحِ الكلابِ وهديرِ محركِ السيارةِ وأصواتِ الزوارِ في قاعةِ الجلوسِ، ولكنَّه بقيَ مستلقيًا في فراشِه بين النومِ واليقظةِ، وجلسَ الدكتورُ على حافةِ السريرِ بجانبِ وائلٍ، ووقفتْ نورةُ تنظرُ إلى الفتى المستلقي ووجهُهُ إلى السقفِ.

أمسكَ الطبيبُ بيدِ وائلٍ وربتها هامسًا:

- وائلٌ هل أفقتَ؟

وفتحَ وائلٌ عينيْه في اتجاهِ صوتِ الدكتورِ وقال:

- صباحُ الخيرِ...

- صباحُ الخيرِ. أتعرفُ من معيَ الآن بجنبِ السريرِ؟ إنها نورة التي ضربتَها بالكرةِ، وظننتَ خطأً أنكَ أعميتها...

فقالتِ الطفلةُ بصوتٍ عذبٍ:

- صباحُ الخيرِ يا وائل! إنني جئتُ لأقولَ لك إنني بخيرٍ وأنني سامحتُك!

فاعتدل وائلٌ قاعداً في سريرِه، ومدَّ يدَهُ نحوَها:

- هاتِ يَدَكِ يا نورة...

فوضعتْ يدَها في يدِه، فأمسكَ بها كعصفورٍ صغيرٍ، وسألها ممتحنًا:

- ما لونُ شعري؟

- شعركَ في لونِ التبنِ!

وضحكتْ، فضحكَ الدكتورُ نبيهٌ ووائلٌ معجبين بظرفِ نورةِ وذكائها.

وعادَ وائلٌ لسؤالها:

- هل آلمتكِ ضربةُ الكرةِ؟

- لم أشعرْ بها، رأيتُ ومضةَ ضوءٍ ساطعٍ كالبرقِ، فَقَدْتُ على إثرِه وعيي. ولم أُفقْ إلا في المستشفى! ولم أستطعْ فتحَ عينيَّ، فقد كانتْ فوقهما ضمادةٌ كبيرة، وظنَّ الجميعُ أنني أصبحتُ عمياءَ! وبدأتُ أنا أفكر في استعمالِ العصا البيضاء!

وضحكتْ، ثم أضافت:

ـ ولكنْ بعدَ ثلاثةِ أيام، نزعَ الطبيبُ الضمادةَ، فإذا بعيني سليمتان...

ونهضَ وائلٌ من فراشهِ، وخرجَ إلى غرفةِ الجلوسِ تقوده نورة.

ووقفَ الجميعُ لاستقبالهِ والترحيبِ به، وضمَّتْه أمه إلى صدرِها وبكتْ...

وحضرَ الشايُ، ودخلَ الرجالُ الثلاثةُ في حديثِ السياسةِ، وخاضَ النساءُ في حديثِ الخادماتِ والأدويةِ. واستأذَن وائلٌ الطبيبَ في أخذ ابنِ عمهِ مرادٍ والطفلةِ نورةَ في جولةٍ في مرافقِ المزرعةِ، وأمسكتْ نورةُ ومرادٌ بيديْ وائلٍ ولكنه هوَ الذي كان يقودُهما ويفرِّجُهما على خُمِّ الدجاجِ واصطبلِ الأبقار ومشاتلِ استنباتِ البذورِ الجديدة...

وفي الطريقِ حكى له مرادٌ عن حديثهِ مع راغبٍ وعن تحركاتهِ في البحثِ عن الطفلةِ، فضغطَ وائلٌ على يدهِ شاكراً، وقال ممازحًا:

- ما كانَ ليقومَ بمثلِ هذا سواكَ، يا سي شرلوك هولمز!

فقالَ مرادٌ:

- وهل كنتَ تقومُ بأقلَّ منه لو كنتَ في مكاني!؟

وسحبْتهما نورةُ صوبَ مربطِ الكلابِ الدلماسية الجميلة، وبدأتِ الكلابُ تهرُّ وتنبحُ، فأسكتَها وائلٌ بحركةٍ من يده وبقولِه:

- لا!

فأخذتْ تحرِّكُ ذيولَها مُرحِّبة...

وفي تلكَ الليلةِ أوى وائلٌ إلى فراشِه خفيفًا منشرحًا، وكأن عبئًا ثقيلاً انزاحَ عن صدره.

* * *

ومع أذان الفجر استيقظَ من حلمٍ رائعٍ أحسَّ فيه بنشوةٍ عارمةٍ ما أحسَّ بمثلِها من قبل! وقالَ لنفسه لا بدَّ أنَّ هذا الشعورَ الرائعَ هو الذي يحسُّ به أهلُ الجنةِ منذُ دخولِهم إليها وطولَ وجودِهم فيها!

رأى نفسه هائماً على وجهه يركضُ في ظلامٍ دامسٍ

صامتٍ، يعدو بخطواتٍ سريعةٍ نحو المجهولِ، غيرَ مبالٍ بما يمكنُ أن يعترضَ طريقَه، بل وموقناً بأنْ لا شيء سيعترضُ طريقه!

ومن بعيدٍ ترامى إلى سمعِه هديرُ أمواجِ البحرِ وهي تتكسرُ على الصخورِ. واقتربَ الهديرُ حتى ظنَّ أنه سيصطدمُ بالأمواجِ. ولكنه لم يبالِ، بل ظلَّ يعدو ويثبُ عالياً في الهواءِ، وكأنه على سطحِ القمرِ، متحرراً من الجاذبية!

وفجأةً سمِعَ صُراخَ طفلةٍ وراءَه، وهي تناديه باسمه وتُمَطِّطهُ:

– واائيييل! واائيييل!

كانتْ تنادي وكأنها تستغيثُ به، أو تنذرُه من شرٍّ قريبٍ، فتوقفَ في مكانِه مرهفاً سمعَه. وجاءه صوتُها واضحاً:

– قف يا وائل! لا تتحركْ!

وتوقفَ عن العدوِ والقفزِ وقلبُه يدقُّ بعنفٍ، فقالت:

– انظرْ أمامَك! أمامَك، يا وائل!

وفتحَ عينيه بقوةٍ وحملقَ في الظلامِ ناسياً أنه لا يبصر،

وفجأةً تحول الظلامُ الحالكُ إلى غبشٍ رماديٍّ كالضبابِ الكثيفِ، وبقيَ وائلٌ يُحملقُ بإصرارٍ لاختراقه، والضبابُ يَرِقُّ ويبيَضُّ حتى انقشعَ تماماً عنْ منظرٍ من أروعِ ما رأتْ عيناهُ!

وجدَ نفسَه على حافَّةِ جُرْفٍ يطلُّ من ارتفاعٍ شاهقٍ على المحيطِ الشاسعِ الملوَّنِ بذهبِ الأصيلِ، وقد اقتربتْ الشمسُ من مغيبِها، وتضخَّمَ قرصُها، ورغمَ وقوفِه على شفيرِ الهاويةِ ونجاته من موتٍ محققٍ، فقدْ بهرَهُ المنظرُ الخلابُ وخدَّرَ أعصابَهَ، فوقفَ مسمراً في مكانِه، يتأملُه حتى ذابتِ الشمسُ في ماءِ المحيطِ...

وفجأةً تذكرَ الطفلةَ التي كانتْ تناديه وتحذِّرُه من السقوطِ، فالْتفتَ يبحثُ عنها فلمْ يعثرْ لها على أثرٍ!

وتذكرَ أنه كان كفيفاً قبلَ نومه، فاعتدلَ جالساً في فراشِه، ونظرَ حواليْه، فإذا ضوءُ النهارِ يملأُ الغرفةَ عليه، فأخذَ ينادي:

- ماما صفية! ماما صفية!

وفتحتِ السيدةُ الطيبةُ البابَ عليه فبادرها صائحاً:

ـ ذهبَ الظلامُ! ذهبَ الظلامُ! أنا أبصرُ! أنا أبصرُ!

فضمَّتهُ المرأةُ الطيبةُ إلى صدرِها وبكتْ فرحاً...

ودخلَ الدكتورُ نبيهُ، فسارعَ وائلٌ إلى عناقِه مجهشاً، فضمَّهُ الرجلُ سعيداً بسعادته...

* * *

كادتْ أمُّ وائلٍ يُغمَى عليها من الفرحِ حين عادَ وائلٌ إليها مبصراً معافى وانهمرتِ الدموعُ من عينيْها، وهي تحمدُ اللهَ على عودةِ نورِ البصرِ إلى ولدِها البكرِ. وصلّى الحاجُّ مصطفى الزبديُّ ركعتين شكراً لله.

وفي اليومِ الموالي أقامَ «فديةً» دعا إليها ثلاثينَ من حفظةِ القرآنِ، فأَحْيَوا ليلةً عامرةً بالتلاوةِ والذكرِ والابتهالِ إلى الله.

وحضرَ الفديةَ فريقُ وائلٍ، واجتمعوا عليهِ في الغرفةِ الكبيرةِ بالطابقِ العلويِّ، يهنئونَه ويسْتَفْسِرونَه عن تجربتِه القاسيةِ، فقال:

«كانتْ تجربةً قاسيةً بالفعلِ! ولكنْ في بدايتِها، وبعدَ الصدمةِ الأولى فقط. فقدْ شعرتُ فجأةً كأنني في بلدٍ غريبٍ

لا أعرفُ فيه أحداً. لكنني انشغلتُ عن حزني على نفسي ورثائي لحالي بمحاولةِ التَّكَيُّفِ مع إعاقتي والعيشِ معها كبقية المكفوفين.

«وبمساعدةِ الدكتورِ نبيهٍ وزوجتهِ السيدةِ صفيةَ، بدأتُ أستكشفُ حواسي وقدراتي الأخرى، وأفرحُ بالانتصاراتِ الصغيرةِ التي أُسَجِّلُها على عاهتي الطارئةِ كلَّ يوم. وتعلمتُ أن أرى بسمعي وشمِّي وأصابعي وبحاسَّتي السادسةِ التي لم أكنْ أعترفُ بوجودِها. وتعلمتُ استعمالَ العصا في شقِّ طريقي بين قطعِ الأثاثِ وأشجارِ المزرعةِ وغيرِها.

«وأهمُّ من هذا أن غيابَ البصرِ الذي كان يشغلُني بالظاهرِ عن الباطنِ جعلني أستكشفُ عالمي الداخلي، وأَتَفَلْسَفُ في معنى الوجودِ والمصيرِ، وفي حقيقةِ قيمتي كإنسان، وفي الهدفِ من وجودي. وتعرفتُ على نفسي، وكأنَّها شخصٌ منفصلٌ لم أكنْ أعرفُه جيداً، وتكونتْ بيننا صداقةٌ حميمةٌ لدرجةِ أنني أصبحتُ أنا أَفْضَلَ جلسائي وأقربَ أصدقائي!

«وبدأتُ أرى الناسَ من بُعدٍ آخر. أراهم بلا أجسادٍ ولا

حركاتٍ ولا تعابير، أُحِسُّ بهم كأصواتٍ وأرواحٍ ومشاعرَ وأشخاصٍ مجردةٍ من المادةِ، وتوقفتُ للتفكيرِ في أشياءَ لم أتوقفْ للتفكيرِ فيها من قبلُ، وكانتْ تمرُّ فوقَ رأسي حين أسمعُها من بعضِ أساتذتِنا المثقفين.

فقال مرادٌ مداعباً:

ـ شوَّقْتَنا إلى العَمَى، يا أخي!

فضحكَ الفريقُ كلُّه وضحِكَ وائلٌ، ثمَّ قال:

ـ ما كنتُ أعتقدُ أنني سأرى النورَ، فعزمتُ على التعايشِ مع الظلامِ، وبدأتُ أكتشفُ إيجابياتِه حتى ألِفْتُه وأَحْبَبْتُه.

فعلَّقَ يوسفُ، شاعرُ الجماعة:

ـ هذا ما حدثَ للمتنبي مع شيبِ رأسِه الذي ألِفَه حتى قال فيه:

خُلِقْتُ أَلوفاً لو رُدِدتُ إلى الصِّبا

لفارقتُ شَيبي مُوجعَ القلب باكيا

فقال وائلٌ:

ـ صحيحٌ واللهِ! المهمُّ ليس هذا، ولكنني خرجتُ من

تجربتي، ولا أقولُ محنتي، بفكرةٍ قررتُ عرضَها عليكم، وهي فكرةٌ أعتقدُ أنها ستعطي معنى لحياتنا، وتجعلُ منا فريقاً نافعاً لمحيطِنا، وليسَ مُجرَّدَ قطيعٍ يذهبُ كلَّ صباحٍ إلى المدرسةِ لأنها مفروضةٌ عليه، ويقضي أوقاتَ فراغهِ في اللعبِ واللهوِ...

فسألَ أحدُ الفتيان مستعجلاً:

– فما هي الفكرةُ إذن؟

– الفكرةُ هي أن نتطوعَ لعملٍ خيريٍّ بضعَ ساعاتٍ في الأسبوعِ. خطرتْ لي الفكرةُ حين صحبني الدكتورُ نبيهٌ معه في زيارةٍ لإحدى مؤسساتِ المعاقين، ومن بينهم المكفوفون والمقْعَدون، وفهمتُ من مديرةِ المؤسسةِ التي استقبلتْنا ورافقتْنا أنها في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى متطوعين ومتطوعاتٍ شبابٍ، لمساعدةِ بعضِ المعاقينَ الصغارِ على الدراسةِ، بالقراءةِ لهم والاستماعِ إلى مشاكلِهم وإخراجِهم للفسحةِ في المدينة والحدائق العامةِ، وأخذِهم ضيوفاً إلى منازلِهم لأكلِ وجبةٍ طيِّبةٍ والاستمتاعِ بدفءِ الجوِّ العائليِّ.

فرفعَ راغبٌ يده قائلاً:

- اسمحوا لي أن أكونَ أولَ المتطوعين! ففي أسرتِنا طفلٌ مقعدٌ، وقد تعلمتُ كثيراً من المهاراتِ من خلالِ العنايةِ به وتسليتِه، وأودُّ أن أُشاطركم تجربتي. وصدِّقوني إنها ليسَ مجردَ عطاءٍ دونَ مقابلٍ، بل هي أخذٌ وعطاءٌ، عطاءٌ لا يقدَّرُ بثمنٍ من جانبِ المعاق!

وتحمَّسَ الفريقُ كلُّه، ورفعوا أيديَهم جميعاً، وانقلبتِ الزيارةُ إلى جلسةِ عملٍ وتوزيعٍ للمسؤوليات...

* * *

وعضَّهمُ الجوعُ فنزلَ وائلٌ لاستعجالِ والدته لإرسالِ الطعامِ إليهمْ. ومرَّ بالغرفةِ الكبيرةِ، حيثُ كانَ يجلسُ حفظةُ القرآنِ لموائدِ الطعامِ، فأطلَّ فيها ثم صَعِدَ إلى رفاقِه لاهثاً وعيناه تلمعان. وتعلقتْ به العيونُ، فقال:

- أتعرفونَ من رأيتُ بين الحُفَّاظِ؟ رأيتُ حارسَ الحديقةِ المُلْتَحِيَ، صاحبَ القبعةِ فوق العمامةِ!

فسألهُ أحدُهم:

- هل عرفَك؟

ـ لا أظنُّ، ولكنْ خطرتْ لي فكرةٌ، وهي أن ننزلَ جميعاً، ونعتذرَ له عن سخريتِنا منه في ذلكَ اليومِ المشؤومِ، ما رأيكُم؟

فقالَ شاعرُ الجماعةِ:

ـ فكرةٌ ممتازةٌ! أنا ما يزال ضميري يُؤَنِّبُني على موقفِنا الصبيانيِّ منه في الحديقةِ. فقدْ أسأنا تفسيرَ مظهرِهِ الغريبِ، فَسَّرْناه بقلةِ الذوقِ وتفكيرِ أهلِ الباديةِ، بينما هو صادرٌ عن اقتناعٍ دينيٍّ بأن القبعةَ الأجنبيةَ حرامٌ على المسلمين، لأنَّ فيها تَشَبُّهاً بالنصارى، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم، ولأنهَ كانَ مضطراً للبسها فإنهُ يعزلُها عن رأسِه بالعمامةِ!

ووافقَهُ الجميعُ على تحليلِه، وانخرطوا في مناقشةِ معنى التشبُّه بالنصارى حتى حضرَ الطعامُ، فاجتمعوا حولَ المائدةِ، وقد أيقظتْ رائحةُ الكسكسِ الشهيةُ جوعَهم...

وحين انتهوا، نزلوا وانضمُّوا إلى الحفاظِ الذينَ كانوا يشربونَ الشايَ ويردِّدونَ بعضَ الأذكارِ.

وأخبرَ وائلٌ والدَه بما اتفقَ الفريقُ عليه، وطلبَ منه أن ينوبَ عنهم جميعاً في الاعتذارِ للحارسِ. وأُعجبَ الحاجُّ

مصطفى بالفكرةِ، ولكنَّه أصرَّ على أن يعتذرَ له وائلٌ بنفسهِ!

وفوجئَ وائلٌ ووقفَ وقد احمرَّ وجهُه خجلاً، وقالَ بكلماتٍ متقطعة: «أيها السادةُ الحفاظُ، بينكمْ فقيهٌ جليلٌ يشتغلُ حارساً بِمُنْتَزَهِ ابن سينا.»

وأشارَ إليه، ففوجئَ الرجلُ، وأظهرَ الاهتمامَ، فأضافَ وائلٌ متوجهاً إليه بالخطاب: «قد لا تتذكرُنا، ولا تتذكرُ الحادثَ الذي مرَّ عليه بعضُ الوقت، ولكننا لم ننسَهُ! كانَ فريقُنا هذا يلعبُ الكرةَ وسطَ طريقٍ عامٍّ بالحديقةِ، فجئتَ أنت ونصحتَنا بعدمِ اللعبِ هناك، حتى لا نُؤْذِيَ أحداً من روَّادِ الحديقةِ، وما كدتَ تُوَلِّينا ظهرَكَ حتى بدأنا نتغامزُ عليكَ، ونسخرُ من قُبعَّتِكَ وعِمامتِك، ثم عدْنا إلى اللعبِ. وقد حصلَ ما حذرتَنا منه، فضربتُ طفلةً صغيرةً في وجهها بالكرةِ حتى سالَ دمُها، وسقطتْ مَغْشياً عليها...»

وتنهَّدَ مستجمعاً قواه، وقال: «وبدلَ أن نَمُدَّ يدَ العونِ للطفلةِ، ونعتذرَ لأهلِها، ونواجهَ الموقفَ بشجاعةٍ، هربنا كالفيرانِ فَزَعًا وجبنًا... وقد عاقبني اللهُ تعالى على فعلتي

النكراء بفقداني لبصري. ولكنه أنعمَ عليَّ بعودتِه بعد اعترافي له بذنبي واستغفاري منه. وهذه هي مناسبةُ هذه الفديةِ المباركةِ التي أقامها السيِّدُ الوالدُ شكراً له تعالى وحمداً. ونحن هنا جميعاً نعتذرُ لك عمَّا فَرَطَ منا في حقكَ، ونلتمسُ عفوكَ ورضاكَ ودعواتكَ الصالحةَ، أيها الرجلُ البركةُ.»

وتأثرَ الحارسُ العجوزُ، واغرورقتْ عيناهُ بدموعِ الرحمةِ، وقامَ فأمسكَ برأسٍ وائلٍ وقبَّلهُ، وهو يردِّدُ: «سَامَحْتُكُمْ جميعاً دنيا وآخرة...»

ورفع الحفاظُ أكفَّهم بالدعاءِ للحاجِّ مصطفى الزبدي ولأهلِ بيتهِ ولجميعِ الحاضرينَ من أعضاءِ الفريقِ التائبِ!

* * *

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر. يقرب
الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوالم
بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ال
الحديثة للشباب في العالم العربي.



٥-١١-٤٠-٩٩٦٠
7000401
04030401
SR- 4.00

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging